د/ نور الدين جويني

قسم اللغة العربية وآدابها أبو القاسم سعد الله جامعة الجزائر 02

nourddinedj66@gmail.com

المحور الثاني: المهاد النظري

المقاربة الميديولوجية في فكر ريجيس دوبريه

تقديم:

منذ اللحظة التي عرفت فيها البشرية ما يسمى بالسبرنيطيقا أو علم التحكم التي كانت مصاحبة للتطور التكنولوجي، شهدت الساحة الثقافية تحولا كبيرا على مستوى التفاعلات، فالوسائط التي انشقت عن هذا التفاعل بين الواقع والبرمجة، خلقت فضاء جديدا استفادت منه مختلف العلوم بما فيها العلوم الانسانية. ونتج عن هذا التفاعل ما يمكن أن نسميه "**العالم المترابط**" الذي وجد فيه الأدب مجالا خصبا لتوسيع رقعة انتشاره في وقت أصبحت فيه العولمة تسيطر على مختلف الفضاءات.

01- الأدب الرقمي وسألة الوسيط

في مقال له بعنوان ما الأدب الرقمي؟ يتحدث فيليب بوطز عن مفهوم الأدب الرقمي، ويشير إلى أن هذا المفهوم هو مصطلح **مثير للجدل**[1]، باعتبار أنه مجال جديد وحالة تطويرية مست الأدب مستثمرة التطور التكنولوجي الذي ولدت في رحمه، ولهذا نجده يقول «نسمي أدبا رقميا كل شكل سردي أو شعري يستعمل الجهاز المعلوماتي وسيطا ويوظف

1 – فيليب بوطز، مالأدب الرقمي؟، تر: محمد أسليم، مجلة علامات، ع35، ص 102.

واحدة أو أكثر من خصائص هذا الوسيط»[1]، وبهذا يصبح الوسيط الالكتروني ميزة يرتكز عليها هذا الأدب كتيمة تحدد خصوصياته التفاعلية.

إن الحديث عن الأدب الرقمي ومسألة الوسيط، هو حديث عن لغة السمعي البصري، التي صاحبت التقنيات التي تنتجها الشاشة الالكترونية(صورة، صوت، نص...)، فهو أدب حاسوبي لا يرتكز على الشفاهية أو الكتابة، كما كان في السابق مع الأدب الورقي؛ بل يخضغ للرموز اللوغارتمية التي تتكلم بها البرمجة الإلكترونية. فقد انتزعت الثقافة الالكترونية، تلك الخصوصية واستولت على طبيعة الأدب خصوصا في عصرنا الذي سيطر فيه الكتاب الالكتروني، وطرد بلغة ماكلوهان الكتاب الورقي من جنة عدن التي كان يعيش برزخها في عصر الطابعة؛ «إنه مانفيستو النهايات نهاية الكتاب الورقي، ونهاية المكتبة، وميلاد المكتبة الرقمية المتخيلة».[2]

إذن فقضية التحولات التي يعيشها الأدب الآن تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة الوسيط، فكلما تغير الوسيط، تتغير طبيعة الأدب، وتتغير معها أيضا عملية تلقي الأدب «إن هذه الإفادة(أي إفادة الأدب من التكنولوجيا) أثرت على عملية تلقي الأدب، وعلى عناصر العملية الإبداعية، مما يجعل بحث علاقة الأدب بالتكنولوجيا أمرا يستحق التوقف عنده وقفة مطولة»[3]، فطبيعة الوسيط هي من تحدد منظومة الأطراف الإبداعية، فإن كان الوسيط ورقة فهو يتطلب قارئ أو متلقي ورقي، أما إذا كان الوسيط الشاشة الزرقاء، ففي هذه الحالة تتطلب العملية الإبداعية متلقي إلكتروني «في السابق كان المبدع ورقيا صرفا، لأنه

1 – المرجع السابق، ص 103.

2 – عمر زرفاوي، الكتابة الزرقاء، مدخل إلى الأدب التفاعلي، دار الثقافة، الكويت، كتب مجلة الرافد، ع56، 2013، 138.

3 – فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، مرجع سابق، ص 14.

لم يكن أمام خيار آخر(...) لكن الأمر اختلف مع الثورة التكنولوجية الحديثة، إذ أصبح بإمكان أي فرد أن يكون مبدعا، ولكن إلكترونيا».[1]

ولكن على الرغم من الدور الكبير الذي يلعبه الوسيط في الأدب الرقمي، يبقى الوسيط حتى قبل الثورة الالكترونية ذو أهمية كبرى، فالذاكرة الثقافية كانت دائما منذ بداية التاريخ تحفظ نفسها عن طريق الوسائط، فالطباعة مثلا تعتبر شاهد كبير ساهم في توثيق سقوط الكنيسة، كونها كانت الوسيط الذي عن طريقه نشرت المعرفة بسرعة كبيرة، «فقد وضعت الطباعة حدا فاصلا بين حقبتين حقبة التواصل الشفوي وحقبة التواصل المكتوب»[2]. وبهذا فالطباعة هي بمثابة ثورة كوبرنيكية أعلنت نهاية عصر كانت أوربا تتلطخ في ظلماته.

02- ريجيس دوبريه والتأسيس الميديولوجي

في الآونة الأخيرة ظهر مجموعة من الميديولوجيين الذين حاولوا تأسيس العلم الذي من خلاله ندرس الوسيط وأهميته، **ويُعد** ريجيس دوبريه من بين أهم المفكرين الذين ساهموا في تأسيس ما يسمى بـ"**الميديولوجيا**" أو "**علم الإعلام العام**". وهذا العلم هو تيار فكري جديد أراد من خلاله دوبريه تقديم تعليل لتلك القواعد المادية التي تشتغل داخل المجال الرمزي.[3] وفي كتاب له تحت هذا العنوان "**محاضرات في علم الإعلام العام –الميديولوجيا–**"، يقدم لنا دوبريه مجموعة من المحاضرات يسعى من خلالها إلى توضيح الأسس والمقولات التي تؤطر هذا المجال الجديد.

يناقش دوبريه تحت عنوان "**الحق بالاستقلالية**" موضوع علم الإعلام وأحقية وجوده، فهو يرتكز من خلال تعريفه – كما يرى – على أمرين "**الوسيط**"، و"**وسائل النقل المادية**"

---

1 – المرجع السابق، ص 137.

2 – زرفاوي عمر: العصر الرقمي وثورة الوسيط الالكتروني–قراءة في تحولات المنظومة الإبداعية، مجلة المخبر، وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، بسكرة، ع1، 2009، ص 111.

3– ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، تر: فؤاد شاهين وجورجيت الحداد، مر: فريدريك معتوق، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1996، ص 11.

وبصيغة أخرى هو «دراسة الوسائط التي بها تصبح الفكرة قوة مادية. تلك الوسائط التي ليست وسائل الإعلام سوى امتداد خاص لها، امتداد متأخر وكاسح».[1] فالمجال الذي يركز عليه علم الإعلام هو "**وسائل النقل**". لأن الفكرة، كما يرى دوبريه، تترك أثرها في عصر من العصور عن طريق **المرتكز المادي** (الرسالة، الكنيسة، الحزب، الكتاب، المدرسة...). ولهذا فهو علم يختلف عن علم الاتصال لأن «من طبيعته التاريخية والفلسفية أن يستعيد ويعيد طرح مشكلة النقل من بدايتها التسلسلية التاريخية والمفهومية على السواء، بعيدا عن الانفجارات المعاصرة. فالواقع التقني مثلا لا يبدأ، بنظرنا، مع الإلكترونية ولا حتى مع الطباعة، وإنما مع الكتابات الأولى والقراءات الأولى».[2]

إن الركيزة المادية (الورق، الطابعة، الكومبيوتر...) في نظر دوبريه هي ما تحفظ الفكرة وتجسدها وليس العكس. فكتاب "**رأس المال**" مثلا كان سيبقى مجرد عمل نظري لولا الطباعة. ولم نكن لنعرف الثورة الفرنسية – كما يرى دوبريه – لولا التدوين الذي صحب هذه الثورة «اصنعوا لي جسدا بادئ الأمر والنفس سوف تلحق فيما بعد...، إن البيروقراطية هي من تصنع الفكراطية وليس العكس».[3]

ولهذا فعلم الإعلام كما يخبرنا دوبريه هو ابن عصره، ولكل عصر وسائطه الخاصة التي لا يستطيع أن يقفز فوقها «نحن أبناء علم الإعلام نشأنا منه وهو الذي قام بحياكتنا؛ فنحن مجرد تكملة لنسيج عمره مئتا عام كان له عشرات الصناع المجهولين أو المشهورين يأتي في مقدمتهم ماك لوهان...، فالذي يعزينا هو اعتقادنا بأن علم الإعلام سيتجدد شبابه

1- المرجع السابق، ص 12.

2- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق،ص 15.

3- المرجع نفسه، ص 20.

كلما مر الزمن. إنه العلم الاجتماعي للمستقبل لأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الوسائط التكنو–ثقافية».[1]

ومن هنا، فالمشروع الذي يطرحه دوبريه هو مشروع هجين، يتقاطع مع علوم عدة، ويختلف عنها في نفس الوقت. سيكون فخرا لهذا العلم أن يكون مدنسا كما يرى دوبريه، لأن التقديس هو سمة العلوم التي تريد أن تجعل من نفسها هالة لا يمكن تجاوزها. ولهذا فهي تفشل منذ بداية الطريق. وهو ما حصل مع علماء الاجتماع الذين اعتبرهم دوبريه مؤرخين فاشلين «فوظيفة علم الإعلام، على وجه الدقة، هي إقامة العلاقة بين العالم التقني والعالم الأسطوري، بين ما يتغير باستمرار وما يبقى عبر الزمن».[2]

ولهذا، فعلم الإعلام حسب دوبريه يختلف عن الإبستيمولوجيا، كما يختلف أيضا عن الأركيولوجيا «لأنه ببساطة لا يلقي حكما على الموسيقى، بل يُقوِّم نوعية الاستماع في القاعة. فهو لا يهتم بأصل هذا الخطاب هل هو مستعار أم هو تحوير أو استيعاب لخطابات سابقة، بل يهتم بما أَنتج هذا الخطاب فعليا».[3]

وهو لا يهتم بالأيديولوجيات، كما لا تهمه الطريقة التي يشتغل بها علم الدلالات. إنه يهتم بالمادة/الوسيط ولا يعطي أهمية للدلالة، كونه يرغب في «التحدث عن الطباعة بدل النصوص، وعن صف الحروف بدل الدلالة، وعن وسائل النقل أكثر من التحدث عن المجاز».[4] إننا، كما يقول دوبريه، نرفض علم الدلالات لا لسبب سوى أننا «ماديون ومتعلقون بالمادة...، وثانيا لأننا ثالثيون ممارسون نبحث دائما عن العنصر الثالث المرتكز

1– المرجع السابق، ص ص 23–24–25.

2– ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق،، ص 28.

3– المرجع نفسه، ص 34.

4– المرجع السابق، ص 38.

المادي مثلا أو الحامل العضوي...، لا يمكننا أن ننسى الوسيط الصغير، العنصر الثالث المعزول، أو اللص الثالث في عمليات النقل وهي أمور يحتقرها عادة كبار المفكرين».[1]

إن الفكر لا يمكن أن يتجلى إلا عندما يكون ماديا. وقد تم القفز في تاريخ المعرفة الإنسانية عن هذه الماديات/الوسائط، كما يرى دوبريه. ولهذا يجب إعادة التفكير في هذه الوسائط، كما يقول، لأننا لا نستطيع أن نتخيل عصرا من دون أدواته «لقد ولى الزمن حين كان علماء الاجتماع الباحثون عن الممارسات الثقافية للفرنسيين يستنتجون بأن التكنولوجيا اليوم تتفوق على الثقافة...، وكأن المسرح وقاعة الموسيقى والحفل الراقص العام أو الكتاب ليست ولم تكن دائما تقنيات ثقافية، وكأن التكنولوجيا قد بدأت مع التلفاز والأسطوانة».[2]

إذن الوسيط هو ما يجعل الحياة/الفكر يستمر. وقريبا سيصبح الإنسان بكامله خارج ذاته كما يقول دوبريه، ولن يستطيع العودة لإنسانيته التي توهّمها في العصر الحجري، لأن العقل البشري يصنع الأدوات التي تجسد الرغبات والآمال «عند الإنسان الأداة تكمّل الحركة وتنفصل عنها، هذا الانفصال أو هذا البروز الخارجي المادي للملكات الإنسانية الخارجة بمعنى ما من الجسد، والآخذة بالعيش بشكل مستقل في توالي الأدوات والآلات، يحدد معيار الإنسانية مثلما تحدد اللغة».[3]

ولهذا يدعو دوبريه إلى ضرورة إعادة النظر في هذه الأدوات من أجل «تخفيض المهارات الصناعية للفرد البشري»[4] والابتعاد قليلا عن الفكر، لأنه وهْم مصطنع من مجموعة من العقائد مسجلة داخل كليشيهات يتقوقع من خلالها الإنسان حول ذاته. ومن هنا

1- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق،، ص ص 38- 39.

2- المرجع نفسه، ص 45.

3- المرجع السابق، ص ص 50-51.

4- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 53.

«يأتي علم الإعلام لينفي هذه الذاتية/النسبية. ذلك أننا لا نفكر إلا كأجساد، والجسد يفكر عبر هذه الترجمة أو تلك، الأجساد هي التي تفكر وليس الأرواح».[1]

فلا شيء يبقى إن لم يحفظ له "الوسيط/وسيلة النقل" أثره. فالجسد هو الذي يفكر وليست الروح. الكنيسة هي سر التجسيد الذي حفظ الدين المسيحي، وليست المسيحية بتأويلاتها الدينية «هناك العذراء مريم والروح القدس والرسل والقديسون والشهداء وآباء الكنيسة والفقهاء والطوباويون والمطارنة والكهنة والشمامسة...إلخ وصولا إلى خادم القداس والمتنصّرين الجدد. إن عبقرية المسيحية هي عبقرية الوسطاء».[2] وبإمكاننا أيضا أن نقول، كما يرى دوبريه، إن التلفاز (السمعي–البصري) أو الفخ التحديثي كما يقول في الهند، هو الوسيط الذي كوّن الأمة «كيف؟ من خلال مسلسل الماهابهاراتا باللغة الهندية، كل يوم أحد صباحا، فهو يسمح لسكان الجنوب برؤية نهر الغانج للمرة الأولى، مما يعطي جسدا وألوانا للهند الأم».[3]

إن الانتشار البطيء للمسيحية، في نظر دوبريه، وتفوق معتقداتها على التصور الفلسفي للعالم الذي كان أكثر رصانة في تلك الفترة، هو لغز محير. فكيف يمكن لكلام بسيط مثل الذي كان يقوله المسيح ويردده القساوسة أن يعترض الفلسفة اليونانية «جميع متعلمي القرون الأولى عاشوا مجيء المسيحية وكأنه هزيمة للفكر وتأخر وعودة مذهلة للبربرية».[4]

لقد جرت لحظة الاتصال بين المسيح والقديس وبين القديس والشعب عن طريق **النقل الشفهي** الذي ضمِن وصول الرسالة التاريخية التي أرادت المسيحية تجسيدها. فقد مكّن الاتصال الشفهي، من خلال بساطته في فك الرموز، وقدرته على التغلغل في الطبقات

1– المرجع السابق، ص 55.

2– ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 70.

3– المرجع نفسه، ص 57.

4– المرجع السابق، ص 73.

السفلى – عكس الكتابي/الفلسفي الذي يجري فيه الاتصال من الأعلى إلى الأسفل، وهو ما يجعل إشاعة رسالته لا تتم بسهولة– المسيحية من نشر رسالتها بسهولة «تميزت المسيحية، أو بالأحرى نقول، كان لها الفضل بأنها وصلت إلى الإمبراطورية الرومانية من الأسفل، ووصلت جغرافيا من الأطراف، كدين مهاجرين وجوالين، واجتماعيا من الأعماق السفلى، من الحرفيين والنساء المهاجرين، على كل حال عبر الفئات الأقل ثقافة. وأدبيا، من الأنواع الأقل نبلا، كتابة السير وليس الفلسفة الماورائية، الرسائل وليست الكتب الضخمة، التبشير وليس المحاضرات».[1]

وهكذا، فالفضيحة المسيحية التي تسبب فيها اليهودي (صلب المسيح)، ودفع من خلالها المسيح ثمن تجسيده (سر التجسيد) انقلب إلى دعاية تحولت لنصر عظيم، ترويه لنا قصص أسطورية «إذا أردتم أن تؤثروا بالناس لا تقترحوا عليهم مسألة تستدعي التفكير والحل، أخبروهم قصة معينة... القصة المسيحية هي أسطورة حسنة النية حيوية ويمكن حملها. ليست تخريفا فلسفيا ولا استعارة شعرية، بل قصة حقيقية ومعاشة بطلها إنسان حقيقي، يخبر قصته بنفسه».[2]

هذا الانتشار لم يكن ليستمر لولا التجسيد/لوحة الكتابة، كما يرى دوبريه. فالكتاب/الإنجيل استطاع أن يحفظ النصوص المقدسة، ويضمن انتشار الرسالة المسيحية على عامة الشعب دون أن تقتصر على الراهب ومن هم داخل الكنيسة. وهنا تكمن نواة الرسالة الدينية «عندما تؤلفون كتابا أو تلقون محاضرة أو مداخلة متلفزة اطرحوا أولا السؤال عن الأداة من هو صاحب المصلحة...؟ أي جهاز أو شبكة أو حزب...، من هو المستفيد...».[3]

1– ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص ص 84–85.

2– المرجع نفسه ، ص 85.

3– المرجع السابق، ص 91.

أما الوصلة الثانية فقد تمثلت في الكنيسة، التي اعتبرها دوبريه بمثابة جهاز نقل ساهم في الانتشار المنظم للدين المسيحي «كان يمكن للمسيحية أن تموت في المهد لو بقيت مجرد حركة ذات هالة دون شطآن ولا تضاريس...، وكما أن الله غير المنظور تجلى بواسطة ابنه المنظور، فإن الجسم الصوفي للكنيسة يجعل المسيح حاضرا أمام البشر...، فالكنيسة دليل المسيح المرتفع وسط الأمم، وسيط الوسيط».[1] ومن هنا، حسب دوبريه، فالمسيح هو الوسيط الذي تجسد عبره الدين المسيحي عن طريق وسيط آخر هو الوحي/جبريل. والكنيسة هي الوسيط أو المؤسسة النموذجية التي حفظت الدين «وهي بدورها كوصلة لها هي نفسها وصلة الفاتيكان. هذا الجسد السياسي الصغير يجسد الجسد الصوفي الكبير».[2]

في المحاضرة السادسة تحت عنوان **هل صحيح أن الأفكار تقود العالم؟** يناقش دوبريه مسألة مهمة تتعلق بالتأثير الذي تحدثه الفكرة. يفتتح هذه المحاضرة بقوله «إن الأفكار تختبئ في الكتب. افتحوها فتفلت وكأنها جنيات أو حوريات. فهي تتغذى بأفكار أخرى وتولد لها أطفال ونحن نلتهمها لنقوى بها. إنها إحيائية خامدة، منقوصة ولكنها حيوية».[3] ويقول أيضا «ماذا نعني بالعملية الثورية غير تحوّل الكلمة إلى جسد، وتحول جماعة فكرية إلى جماعة قائدة، وتحول الأقلام إلى بنادق».[4] صحيح أن لقوة الأفكار والكتب دورا مهما جدا في عملية الانتشار الواسع للثورة، كونها، كما يقول، **مسدسات محشوة**. ولكن دوبريه ينبهنا إلى مسألة مهمة هنا وهي الوسيط الذي تتشكل داخله هذه الأفكار أولا، قبل أن تتضح ويصبح لها وجود ملموس، تكون نتائجه ما يسمى بالعملية الثورية. فالصرخات التي نزلت للشارع تستند للمطبوعة قبل كل شيء «الثورة الفرنسية قدست الخشب والورق

1- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 95.

2- المرجع نفسه، ص 97.

3- المرجع السابق، ص 104.

4- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 105.

والرصاص...، وقد شهدنا منتصري الباستيل يحملون مطبعة ليضعوها مع كل شعائر الاحتفال، على أنقاض تلك القلعة، وكأنها قديس مجيد على مذبح الوطن».[1]

وفي هذا الصدد، يناقش دوبريه القضية التي جعلت المحكمة البوليفية سنة 1967م تقرر الحكم ثلاث سنوات سجنا على ريجيس دوبريه، عقب نشره لكتابه "**ثورة في الثورة**"، حيث اتُّهم، بسبب زمالته لقائد حرب العصابات في بوليفيا تشي غيفارا، بتحريضه وتأثيره الذاتي في جرائم الاغتيال والسرقة «فقد حكمت المحكمة على ريجيس دوبريه المشارك وفق هذه الأشكال الثلاثة من الجنح الخاضعة هنا للمحاكمة، وذلك بوصفه مثقفا محرضا وباعتباره عضوا في مجموعة مسلحة غير نظامية».[2]

ويتوقف دوبريه هنا للحظة، ويقول إنه لو لم تكن للسلطات السياسية قناعة تامة منذ القِدم بأن الكتّاب متورطون بصيغة أو بأخرى في عمليات التحريض، وفي حالة دوبريه، يرى أنه إذا افترضنا مجازا أن التهمة كانت صحيحة، وأنه ساهم في عمليات التخريب، فإننا كما يقول «كمن يؤمن بأسطورة زرع أسنان التنين للحصول على مقاتلين مدججين بالسلاح».[3] لأن القضية لا تتعلق بمقترحات فكرية من أجل القيام بثورة، فتكوين الوعي يعمل وفق أهداف ودوافع «فالأكثر فاعلية والأكثر ثقلا في الأيديولوجيا الاجتماعية لا يمر بالكلمات. الخطاب يمكن أن يلد صدمة أم لا، والمفكر يمكن أن يكون له نفوذ على معاصريه؛ أما التأثير بزمرة معينة هو من طبيعة أخرى».[4]

إن فاعلية الفكرة، كما يرى دوبريه، تقاس بمدى قوتها المادية «فالطباعة حوّلت عالم اللغة إلى محرّض، وفيما بعد قائد المدرسة إلى قائد عسكري».[5] أو بلغة عصرنا «ما لا يمر

1-المرجع السابق، ص 113.

2- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص ص 117-118.

3-المرجع نفسه، ص 118.

4- المرجع السابق، ص 123.

5- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 130.

في التلفاز لا وجود له، والحقيقي هو ما أراه في جهازي».[1] وبالتالي، فكل شيء حسب دوبريه يتجدد من خلال الحلقة الوسيطية، ولكل عصر مجاله الوسيطي الخاص، ولا وجود لوسيط مجاني/بريء. فنحن مثلا نعيش عصر الصورة (السمعي–البصري) الذي يُصنف عند دوبريه في الخانة الثالثة من الجدول الذي وضعه في آخر صفحة من كتابه. فقد تدرجت علوم الإعلام، على حد قوله، وفق مراحل تاريخية تتحدد في ثلاثة عصور، لا تبدأ في نظره من الثورة الإلكترونية أو الطباعة «وإنما مع القراءات الأولى. والنقل المدرسي هو كذلك تقنية فكرية بدون آليات مصطنعة. والدين أيضا هو واقع للنقل. إن المقاربة التاريخية في النهاية هي التي تستطيع أن تعطي مجددا وفي الوقت نفسه الوساطات الملموسة للفكر تماسكها الداخلي، والوظيفة الوسائطية عموميتها النظرية».[2]

ولهذا، فالعصر الميديولوجي الأول عند دوبريه يدخل تحت ما أطلق عليه "**عصر المجال الكلامي**" والركيزة المادية لهذا العصر هو الكتابة، المخطوطة... أما العصر الثاني فهو "**المجال الخطي**"، والركيزة أو الحامل العضوي لهذا العصر هي الطباعة، الكتاب... أما المجال الوسائطي الثالث فيسميه دوبريه "**السمعي–البصري**" وركيزته المادية، التلفاز والصور والكومبيوتر... «إن أطروحتي ستكون التالية: لا مناضلون بلا مؤسسات، ولكن لا مؤسسات سياسية بدون أدوات مادية مناسبة... فالاشتراكية العمالية كانت كائنا للعقل، مستنتجة من الكتاب، تقودها المدرسة، وتترجمها الصحيفة. المطبعي والمفكر والمربي، كانوا الأعمدة الثلاثة للوسيط الاشتراكي».[3]

ومن هنا، يعتبر دوبريه أن علم الإعلام العام هو مجال موغل القدم، وما نحن إلا أبناؤه ومجرد تكملة له. فكل تقدم تقني هو نوع من تجديد للوسيط. فالتطور في المجال الوسائطي، كما يرى دوبريه، لا يعلن عن نفسه وإنما يمر خفية «وكأن الوسيط متقدم على

1- لمرجع السابق، ص 133.

2- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 15.

3- المرجع نفسه، ص ص 165-166.

مستخدمه الذي يُطرح عليه...، كانت الطباعة في بدايتها تقلد الخط؛ وكان التصوير يقلد الرسم بإنشاء ديكور في الأستديو يحيط بإطار الصورة».[1]

وتكمن خطورة الوسيط بصورة أكبر، كما يعبّر عن ذلك دوبريه، عندما يقع في أيدٍ شريرة. فالتلفاز مثلا، كما يرى دوبريه، إذا وقع بين أيد شريرة/السلطة سيستغل وفق ما يصنعونه هم، وتتحول هذه الأداة التي تقدم رؤية واحدة للعالم الخارجي إلى ركيزة تخدم السلطة، ووسيط للتلاعب بالعقول «فالتلفاز المحرر الذي انتظرناه طويلا يقع بشكل عجيب في الفخ. فالأداة تحوّل أسيادها المفترضين إلى أدوات؛ وتبقى السلطة للأداة. إنه لأمر عجيب وغريب».[2]

إن السؤال الأساسي الذي يحكم أطروحة دوبريه، في منطقها التأسيسي، سؤال يؤرق كل من يسعى لفهم الركائز الجوهرية التي يقوم عليها مجتمع أو ثقافة ما، خصوصا في هذا العصر الذي أصبح الوسيط فيه يسيطر على الرأي العام بامتياز. فقد ذاب هذا الرأي في الوسيط الذي تتحكم فيه السلطة المهيمنة، ولهذا ازدادت الخطورة، وأصبح عالم الإعلام أمام تحد كبير. فالسرعة التي وفرتها وسائل الإعلام مكنت للهيمنة من السيطرة على كل المجالات تقريبا بما فيها الكتاب، الذي تحول كما يرى دوبريه «إلى سلعة. وغاية الطباعي قبل كل شيء، أكان إنسانيا أم لا، ليست القارئ ولا النص، وإنما البيع. وتجارة السلعة الرمزية كانت دائما موجودة، ولكن الجديد هو الربط الصريح والواضح للإنتاج بالتوزيع أي وضع السوق في المقام الأعلى».[3]

1- المرجع السابق، ص 129.

2- ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، مرجع سابق، ص 50.

3- المرجع نفسه، ص 143.